أسرة الجيل :

أحمد تيمور باشـــا

للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف

« إلى الصـــديق الكريم ، والباحث المحقق ، الدكتور محمد سامي الدهان ، وفاء بما وعدته من الإفاضة .. في الحديث عن أولئك الأساتذة الأماثل الذين مهدوا الطريق أمام هذا الجيل... »

تيمور ، بفتح التاء ، ويحققها بعض العلماء بالكسر ، كلمة تركية ينطقها الأتراك في لغتهم دمير أو دمور ، ومعناها عندهم الحديد ، وكانت تستعمل لقب تمجيد في المملكة العثمانية ، والولايات التابعة لها ، وبها لقب السيد محمد كاشف جد الأسرة التيمورية ، وأول من وفد منهم إلى مصر ...

وأصل السيد محمد هذا من بلاد كردستان بولاية الموصل ، ويذهب آل تيمور في إثبات نسبهم إلى أنهم من أصل عربي اعتماداً على ما ذكره ابن الكلبي وابن خلكان ، من أن نسب الأكراد ينتهي إلى عمر مزيقياء بن عامر بن ماء السماء ، أو ينتهي إلى عدنان كما ذكر بعض العلماء . على أن آل تيمور يذهبون من ناحية أخرى إلى أن جدتهم زوجة السيد محمد كاشف ، وهي السيدة عائشة الصديقية ، كانت كريمة السيد عبد الرحمن الاستانبولي ، وهو كما يقولون شريف النسب ، صريح العروبة ، كان يتولى الكتابة في الديوان السلطاني للسلطان سليم الثالث ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويثق به ، فلما قتل السلطان فرّ إلى مصر ، وعاش في رعاية عزيزها محمد علي باشا مكرماً إلى آخر حياته ...

ولقد كان السيد كاشف جد الأسرة التيمورية من رجال السيف ، وقد جاء إلى مصر في رفقة محمد علي مع الجند الذين أرسلهم السلطان لتثبيت سلطة الخلافة العثمانية على مصر بعد خروج الفرنسيين منها واضطراب الأحوال فيها ، وقد كانت بينه وبين محمد علي في أول أمرهما صداقة ومودة . فلما تم الأمر

الذين سأكون واحداً منهم ليس من اللياقة أن أحبس عنهم حقيقة ثروتي ، فجمعت أطراف شجاعتي « وصححت » المعلومات التي وصلتهم عني . وما كنت أدري أنني بهذا القول قد بخست في نظارهم من قدر نفسي ، فلم أكد أصل منزلي ، حتى لحق بي رسولي ، والغضب باد على وجهه ، وهو يصيح في وجهي : لقد أفسدت كل شيء ! قلت : ماذا ؟ قال : مالك وللحديث عن أطيانك ؟ لماذا لا تتركهم في ضلالتهم ؟ لقد اعتذروا من عدم قبولك صهراً لهم ، وفهمت أن السبب هو أنك قلت لهم إنك لا تملك شيئاً . أو ما كان الأحرى أن تموه عليهم حتى ينتهي كل شيء ؟ قلت : لا أستطيع . وإياك أن تفعلي هذا مرة ثانية . قالت : إذن فأعفني من هذه المهمة ووداعاً ياصديقي ! قلت : وداعاً

* * *

وكنت ذات يوم منهمكاً في عملي ، وقد قدرت للفراغ منه ساعة من زمان ، وإذا بزميل لي يقتحم علي الباب ، والبشر يطفح من وجهه ، ويقطع عليّ سلسلة أفكاري ، وهو يدندن بألفاظ لم أفهم لها معنى . ثم قال : أما تهنئني ؟ قلت : بلى ، ماذا أصبت ؟ قال : كنت مع المدير الآن أخل إليه « توصية » من فلان باشا وقد وعدني بترقيتي في الشهر القادم . قلت : ولكننا لا زلنا على بعد ستة أشهر من الميزانية الجديدة ؟ قال : وما شأن الميزانية الجديدة الآن ؟ قلت : لأن الترقية إنما تكون على درجات خالية وقد استنفدت المصلحة في ترقياتها الأخيرة جميع ما لديها من درجات . قال : كيف ، وقد وعدني بما قلت لك ؟ قلت : لقد خدعك . قال : هذا محال ؛ وخير لك أن تبشر ولا تنفر . قلت : لقد أعذر من أنذر . قال : لا ، إنك تسعى بقولك هذا في تثبيط همتي ، ولا تود لي خيراً ؛ إن المدير لا يكذب . قلت : شأنك وما تريد . قال : الآن قد كشفت ما تنطوي عليه نفسك من حسد لي ، وحقد علي ، وكان أولى بك أن تفرح لفرحي . قلت : لو أن هناك ما يستحق الفرح . فانفلت زميلي من الغرفة حانقاً ولم أعد أرى وجهه . ثم مضى شهر أعقبه شهر آخر ، ثم تلته شهور أخرى وصاحبي لا يزال ينتظر الترقية الموعودة . ولكن هذا لم يحل دون تجنبه إياي ، ونشره بين زملائي أن فلاناً يكره الخير للناس ، ثم روايته القصة بصوره تؤيد ادعاءه . وما أقل المحققين للأخبار !

دكتور

عبد العزيز برهام

لمحمد على باشا فى الولاية على مصر ، فرب إليه صاحبه القديم ، وأخذ يعتمد عليه فى تنفيذ خططه وتدبيراته ، وقد كان ساعده فى حادثة الفتك بالمماليك فى مأدبة القلعة ، كما كان عضده فى إخماد ما كان من فتن وما قام من ثورات ، وكما أرسل محمد على ابنه طوسون على رأس الحملة المصرية لحرب الوهابيين أرسل رفقته السيد محمد ، فأبلى فى هذه الحرب بلاء حسناً ، وكان أن عينه محمد على كاشفاً على الشرقية ، وهو مثل منصب المدير فى هذه الأيام ، ومن ثم لزمه لقب كاشف وعرف به ، حتى إذا ما استقرت الأمور فى الحجاز عينه والياً للروضة الشريفة ، فبقى هناك خمس سنوات ، ثم عاد إلى مصر ، وتخلى عن الأعمال الرسمية ، ولكنه بقى مع محمد على على حسن الصلة والمودة . وفى أواخر حياته انقطع للعبادة ، وعكف على الأخذ بأسباب الصلاح والتقوى حتى توفى عام ١٨٤٨ م وهو فى حدود الثمانين من العمر ولم يترك من الخلف إلا ابنه إسماعيل .

لم ينشأ إسماعيل على غرار والده ، ولم يكن له مثل غرامه بالجندية وأساليب النضال ، ولكنه نشأ من صغره وفى طبعه الميل إلى العلم والأدب ، وقد عنى والده بإشباع رغبته ، فأحضر له المعلمين فى العلوم العربية والدينية ، وعهد إلى أحد رجال الترك الأفذاذ بتعليمه اللغة التركية وآدابها ، ولقد كان هذا التعليم المنزلى للعلوم الإسلامية والآداب التركية هو المظهر السائد بين الأسر الكبيرة فى مصر يومذاك ، إذ كانت روح الدولة إسلامية خالصة ، وكانت الصلة بين مصر وتركيا صلة خلطة ونسب ودين أكثر مما هى صلة حكم ، وكان رجال الحكومة كلهم أو جلهم من الأتراك ، وكانت الطبقة العالية تتكون من الأسر التركية التى وفدت على مصر فملكت الضياع والثروات والمناصب ، ومن ثم كانت اللغة التركية والآداب التركية لها مكانة كبيرة فى نفوس الخاصة ، وكانت الأسرات الكبيرة تحرص عليها وتراها غاية الكمال فى تثقيف أبنائهم وإعدادهم لمناصب الحكومة ودواوينها ، كما هو الشأن اليوم فى الحرص على تعليم الإنجليزية والفرنسية .

برع إسماعيل فى الإنشاء التركى ، وأخذ بحظ وافر من الثقافة التركية ، لهذا ولما كان من متانة الصلة بين والده وبين محمد على باشا ، فقد شمله محمد على بعطفه ، واتخذه كاتباً خاصاً له ، ثم عينه وكيلا لمديرية الشرقية التى كان والده كاشفاً عليها من قبل ، ثم زاد فى العطف عليه فعينه مديراً ، وظل إسماعيل فى هذا المنصب ينتقل من مديرية إلى أخرى . ولكن يظهر أن حياة الإدارة وما تقتضيه من الصرامة لم توافق طبعه الأدبى وإحساسه المرهف ، ولهذا سعى بنفسه عند محمد على فى التخلى عن هذا المنصب والعودة إلى الديوان فحقق له رغبته ... ولما تولى عباس باشا الأول عينه وكيلا للديوان كتخدا ، وكان أكبر ديوان فى الحكومة المصرية ، وكان وكيله يعتبر أكبر رجال الدولة بعد الوالى ، فله الإشراف على جميع شئون الدولة مثل ما لرئيس الوزراء فى هذه الأيام ، ومنصب كهذا يقتضى لا شك من صاحبه كثيراً من اليقظة والحذر ، ولكن إسماعيل كما قلنا كان صاحب طبع أدبى لا يسنده فى مثل هذا المركز السياسى ، ولهذا لم يلبث أن عزل من هذا المنصب بوشاية كاشح ، غير أن عباس باشا تبين حقيقة الأمر فأعاده ناظراً لخاصته . ولما تولى سعيد باشا أرجعه إلى الديوان كما كان من قبل ، ولكنه لم يلبث أن استقال لإهانة لحقته من الوالى ، وكأن الرجل كان قد عاف الحياة الحكومية وشبع منها ، أو كأن ما أحاط به من ظروف اضطرته إلى الخروج من الديوان الخديوى مرتين قد بغضه فى تلك الحياة فظل بقية عهد سعيد وشطراً كبيراً من عهد إسماعيل منعزلا عن الناس ، عاكفاً على كتبه وتدبير الأمور فى أملاكه ، وجعل من داره ناديا للسمر والمذاكرة مع أهل العلم والأدب . وفى آخر حياته أنعم عليه إسماعيل باشا برتبة الباشوية ، واختاره ناظراً لخاصة ولى عهده توفيق باشا ، ولكنه توفى بعد ستة شهور من تولى هذه النظارة سنة ١٨٧٢م ولم ينجب إلا ابنتين كبراهما السيدة عائشة عصمت تيمور الشاعرة المعروفة ، وابنا هو المغفور له أحمد تيمور باشا ، كما ترك خزانة كتب تضم كثيراً من النوادر ، وخاصة فى اللغة التركية وآدابها ، ولكنها ضاعت وبعثرت ، ولم يبق منها إلا فهرسها ...

نشأ المغفور له أحمد تيمور يتيما ، لم ير والده ، ولم يتمتع بحنان الأبوة ، فقد ولد عام ١٨٧١ م ، أى قبل وفاة والده بعام واحد ، فتعهدته شقيقته الكبرى السيدة عائشة تيمور بالرعاية ، وتولته بالتثقيف ، والتعليم ، وكان الابن صورة ممتدة للأب فى هدوء الطبع ، والميل إلى العلم ، والشغف بالثقافة ، فدرس العلوم

الأولية على مدرسين خصوصيين بالمنزل ، ثم أخذ يدرس اللغة العربية على الشيخ رضوان محمد أحد العلماء المشهورين فى ذلك العهد واللغة الفرنسية فى مدرسة كليبر ثم على الأستاذ عبيدبك ، كما أخذ فى دراسة التركية والفارسية . وكان بطبعه ميالا إلى الإفادة والتحصيل ، فنبغ فى دراسة اللغات الأربع . وإذا كان أحمد تيمور لم يحضر عهد والده ولم يتمتع بتلك الندوة العامرة التى كان يقيمها فى بيته لمذاكرة العلماء ومسامرة الأدباء ، فإن الله قد هيأ له من ذلك ندوة أحفل فى دار ابن أخته محمود توفيق بك ، فكان يتردد عليها للافادة . ويحدثنا تيمور باشا بطرف من أخبار هذه الندوة فى الترجمة التى كتبها لصديقه محمد أفندى أكمل فيقول : « وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق بك ، وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته ، ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب ، وقد تعذر على فهم باب أفعل التفضيل ، وأجهدت نفسى فى درسين متواليين على تفهمه ، فلم يفتح على بشىء فيه ، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت على فهمه ، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولا تنسنى ... »

وهناك شيخان جليلان تتلمذ عليهما أحمد تيمور ، وكان لهما أبعد الأثر فى توجيهه وفى ثقافته ، وكان رحمه الله يذكرهما دائماً بالإجلال والتبجيل ، أولهما العلامة اللغوى الشيخ محمد محمود الشنقيطى ، وثانيهما العلامة المنطق الشيخ حسن الطويل .

أما الشنقيطى فقد كان تيمور باشا يقصد إليه فى داره ، ويجلس أمامه لتلقى الدرس ، وكان الوقت يطول به وهو متربع على الأرض ، فكان حينما يشعر بألم ويريد أن يبدل رجلا بأخرى يقول الشنقيطى له : لا تتألم يا أحمد ، فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية . ويحكى تيمور باشا عن نفسه فيقول : وأشار على مرة أستاذنا العلامة الشنقيطى أن أطالع أمالى أبى على القالى مطالعة إمعان وتدبر ، ولم تكن طبعت بعد ، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها ، واحتجبت عن الناس بضعة أيام ، حتى استوفيت ما بهذه الكراريس ...

وأما الشيخ حسن الطويل فيظهر أنه كان أشد خلطة وأعلق بنفس أحمد تيمور ، وهو يعتبره أستاذه الذى قومه وثقفه وأخذ بيده إلى الطريق المستقيم ، وقد كتب تيمور باشا ترجمة مطولة لهذا الأستاذ الفاضل أورد فيها سبب اجتماعه به وتحدث عن مدى انتفاعه بعلمه وفضله فقال : « أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه ، فإنى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين ، وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات ، ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد التصادم والتناقض ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم لعلى أجد عندهم مفرجاً ، فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين : فإما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس ، حتى أرشدنى بعض الأصحاب المترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرونى منه حتى بالغ بعضهم ورماه بالزندقة ، فقلت : إذا كنت لم أجد طلبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف وعلوم البلاغة بتوسع ، ثم قرأت طرفاً من الحكمة . ولما رآنى مجداً فى التحصيل قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها . وكان من عاداته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحاً للنفس ، فكان يسافر إلى ضيعتنا التى بقويسنا أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال ، حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه ، فيقرر لى المسائل ونحن سائران . . . فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى ، ولو لم يكن له على سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفة السمحة لكفى

« للحديث بقية »

محمد فهمى عبد اللطيف